**المحاضرة التاسعة :**

**منهج البحث0**

**كان البصريون يقفون في منهجهم عند الشواهد الموثوق بصحتها الكثيرة النظائر 0 وقد أفضى هذا إلى دقة أقيستهم وصحتها، وكانوا يؤوّلون ما خالف القواعد ويقولون عنه بأنه شاذ، أو مصنوع، أو من قول الرواة وليس له أصل ؛ لذلك كثر عندهم ما قلَّ عند الكوفيين من التأويل والحكم بالشذوذ والضرورات 0 وقد استعمل البصريون القياس وفضلوه وآمنوا بسلطانه وأهدروا ما سواه , فإذا رأوا لغتين إحداهما تسير على القياس والأخرى لا تسير عليه فضلَّوا التي تسير على القياس وضعفوا من قيمة غيرها مما خالف أقيستهم ، فهم في الواقع أرادوا تنظيم اللغة ولو بإهدار بعضها 0 وما يسمعون من العرب مخالفاً لهذا التنظيم يعدونه مسائل شخصية جزئية يتسامحون فيها ولا يتسامحون في مثلها والقياس عليها حتى لا تكثر؛ فتفسد القواعد والتنظيم الذي وضعوه ، هذا إذا لم يتمكنوا من تأويل الشاذ تأويلاً يتفق وقواعدهم ولو بنوع من التكلف 0**

**أما الكوفيون فقد اقتضى فكرهم اللغوي فرض احترام كلّ ما جاء عن العرب ، وأجازوا للناس أن يستعملوا استعمالهم حتى وإن كان الاستعمال شاذاً لا ينطبق على القواعد العامة , بل إنهم يجعلون هذا الشذوذ أساساً لعرض قاعدة عامة ذلك لأنهم ينطلقون من النص القرآني ويؤصلون ما ورد فيه من لغات العرب ؛ لأن القرآن الكريم وإن غلبت عليه لغة قريش إلا أنه استوعب لغات العرب الفصيحة 0 والقول بنزوله بلغة قريش مفاده ما ذكرنا منطلقين من قوله تعالى**  **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء:214] وقوله تعالى**  **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ [إبراهيم:4], والقول لما ذهب إليه بعض المستشرقين من عدم نزوله بلغة قريش يبطل التحدي والإعجاز وربما قصدوا إلى ذلك 0**

**ونستخلص من ذلك أن البصريين اتجهوا إلى التحرر من أسر اللغة 0والتقيد بأحكامها وتنظيماتها العقلية التي وضعوها لها , على حين كان الكوفيون أقلَّ تحرراً وأشدَّ احتراماً , ذلك بأنهم ينطلقون من النص القرآني في وضع القواعد بعد التماس النظائر له في لغة العرب ذلك بأن القرآن الكريم نزل على وفق سنن العرب في كلامها واستوعب الفصيح من لغاتها , والبصريون يريدون وضع قواعد للموروث اللغوي يسودها النظام والمنطق بغية التقريب والتعليم فأماتوا أسباب الفوضى من رواية ضعيفة أو موضوعة أو قول لا يتماشى مع المنطق الذي استخلصوه من اللغة نفسها 0 والكوفيون يؤيدون وضع قواعد للموروث اللغوي من غير إهمال شيء , بل سعوا إلى أن يضعوا للمسموع ما يلائمه من القواعد وكانوا ينطلقون من النص القرآني لا من الشعر كما يفعل البصريون , والحق أن الكوفيين لم يكونوا قد ران على قلوبهم التعصب المذهبي والهوى وإنما كانوا يأخذون من البصريين , ويقال إن كتاب سيبويه مما أهداه الجاحظ (ت255هـ)إلى ابن الزيات وزير المعتصم وقد اشتراه من ميراث الفرَّاء بعد وفاته , فقال ابن الزيات : أو تظن أن خزانتنا تفتقر للكتاب , يقول الجاحظ : فقلت له : إن هذا بخط الفرَّاء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن عثمان , وقصد نفسه , فقبلها الزيات هدية ثمينة 0**

**ومن منهج الكوفيين التوسع في دراسة القراءات وتبيان ماتنطوي عليه من علوم اللغة بمستوياتها الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي ، وكانوا يحرصون على تأصيل القراءة واستحضار الأشباه والنظائر من النص القرآني أولاً ، ثم من لغة العرب شعراً ونثراً ثانياً 0 فكانوا يقيسون على القراءة وما يضارعها من كلام العرب وإن كان قليلاً ؛ لأن الأصل عندهم الانطلاق من النص القرآني في تقعيد القواعد ، فهو المتن اللغوي الصادق الثابت روايةً وحفظاً بالتواتر 0 ومن الغبن للكوفيين الحكم على أنهم يقيسون على الشاهد الواحد أو القليل ذلك بأنهم يقيسون على النص القرآني رسماً وقراءةً ، والشاهد القرآني هو المقدم على سواه في السماع عندهم ؛ لصحة روايته وتواترها 0 على حين نجد البصريين يؤولون النص القرآني إذا خالف قواعدهم وهذا منهجهم الذي اتبعه سيبويه ومن جاء بعده ، فالقاعدة مقدمة عندهم على الشاهد وإن كان قرآنياً 0**